

التفاسير القرآنية
في مصر في العصر الحديث

مراجعة كتاب المستشرق جانسن
(J.J.G.Jansen)

حازم زكريا محيي الدين
كاتب سوري

شهدت حركة الاستشراق منذ نهاية القرن التاسع عشر إهتماماً متزايداً بدراسة القرآن الكريم، وقد تزامن هذا الاهتمام مع ظهور مدرسة نقد الكتب المقدسة في الفكر الغربي الحديث، التي كان من رموزها اسبينوزا .. ورينان، وقد كانت هذه المدرسة وما زالت تنظر الى الكتب المقدسة بوصفها نتاجاً بشرياً له علاقة بالبيئة الثقافية والحضارية التي جاءت فيها هذه النصوص ،

لذلك عكفت على دراستها في ضوء الوثائق التاريخية، وأخضعتها للنقد التاريخي من حيث الشكل والمضمون.

وكان من آثار ظهور هذه المدرسة في الفكر الغربي أن بدأ المستشرقون بدراسة القرآن الكريم وفق هذا المنظور الوضعي، وهكذا ظهر الجيل الأول والثاني من المستشرقين الذين تبنوا هذا الاتجاه، من أمثال نولدكه، بلاشير، فليشر، جيفري، أربري، بل... ومن بين أبناء الجيل الثاني في هذه المدرسة الاستشراقية برز غولد زيهر الذي وسَّع من دائرة إهتمامه بالدراسات القرآنية إلى مستهل القرن العشرين، وقد تصل إلى دراسة تاريخ التفسير منذ عهد رسول الله شكَّلت دراسات زيهر - التي ترجمت إلى العربية تحت عنوان مذاهب التفسير الإسلامي: (١) - الأساس المنهجي والمعرفي لكل من جاء بعده من المستشرقين، الذين اهتموا بشكل خاص بدراسة تاريخ حركة التفسير في التاريخ الإسلامي القديم والمعاصر على السواء.

ولعل أبرز مؤلفات الجيل الاستشراقي الثالث في ميدان دراسة حركة واتجاهات التفسير في العصر الحديث، هي مؤلفات الباحث الفرنسي جوميه الذي قدَّم دراستين، واحدة عن تفسير المنار للشيخين محمد عبده، ورشيد رضا عام ١٩٥٤م، والأخرى عن الشيخ جوهرى طنطاوي وتفسيره الجواهر عام ١٩٥٧. (٢) ثم جاء بعده المستشرق الهولندي بالجون صاحب كتاب (التفسير القرآنية الحديثة ١٨٨٠ - ١٩٦٠) الذي صبَّ معظم إهتمامه فيه على دراسة التفسيرات القرآنية التي ظهرت باللغة الأوردية في الهند وباكستان، والتفسير التي ظهرت في مصر في تلك الفترة (٣). ثم جاء بعده الباحث جانسن (٤) صاحب كتاب : (التفسير القرآنية في مصر في العصر الحديث) (٥). الذي سيكون محور حديثنا في هذا العرض والمراجعة.

عرض وتحليل :

تناول هذا الكتاب بالدراسة والتحليل الموجزين معظم جهود مفسري القرآن الكريم، والباحثين في ميدان الدراسات القرآنية في مصر منذ بداية القرن العشرين إلى عام ١٩٧٠م، أو - بلغة المؤلف - من الشيخ محمد عبده إلى الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء أول مفسرة أو باحثة في الدراسات القرآنية في العصر الحديث.

صنَّف المؤلف المادة العلمية التي قام بدراستها إلى ثلاثة اتجاهات، حسب الاهتمام الذي غلب على كل مفسر وباحث أثناء تفسيره أو دراسته للقرآن الكريم، وهذه الاتجاهات هي: الاتجاه العلمي في التفسير، والاتجاه البياني والأدبي في التفسير، وأخيراً الاتجاه الاجتماعي العملي في التفسير.

قسَّم المؤلف كتابه إلى مقدمة وخمسة فصول، وخاتمة. تناول في المقدمة الأسباب التي دفعته للكتابة في هذا الموضوع، وحصرها بشكل رئيسي بضرورة تعريف القارئ الغربي بجهود العلماء المسلمين في ميدان تفسير القرآن الكريم، وذلك بسبب جهل هذا الجمهور بهذا الميدان بشكل عام، وصعوبة تعاملهم معه، وحاجتهم في الوقت نفسه إلى هذه المعرفة لأنها تشكل مدخلاً ضرورياً لفهم الإسلام، والفكر الإسلامي. وقد أشار المؤلف إلى كثرة المؤلفات في مجال التفسير، وبشكل خاص المؤلفات الحديثة التي لفتت نظره، واسترعت انتباهه أثناء زيارته العلمية للقاهرة عامي ١٩٦٧ - ١٩٦٨، الأمر الذي شجعه على البحث في هذا المجال، وبشكل خاص دراسة الكتب التي نشرت في مصر بين عامي : ١٩٠٠ - ١٩٧٠م، إذ، فإن هدف المؤلف من كتابه هو الاستجابة لحاجات وفضول القراء الغربيين في الاطلاع على جهود المسلمين المعاصرين في ميدان علم التفسير.

خصَّص المؤلف الفصل الأول لذكر مقدمة عامة عن القرآن الكريم، وتاريخ تفسيره بشكل عام. وقد أشار المؤلف في صدر كلامه إلى أن

المسلمين يعتقدون أن القرآن الكريم بكامل حروفه ومعانيه وحي مباشر من الله تعالى عن طريق الملك جبريل، وهو إزاء هذه النقطة الجوهرية لم يوضح لنا موقفه بشكل صريح من هذه الحقيقة التي يعتقدونها المسلمون جميعاً، وأغلب الظن عندي أن المؤلف لا يقبل هذه الحقيقة، مثله مثل أغلب المستشرقين من قبله، ويتضح لنا موقفه هذا من خلال استخدامه عبارات التضعيف والشك عندما أشار إلى هذه الحقيقة (٦). ولكي يقرب المؤلف فكرة ألوهية القرآن الكريم نصاً ومعنى إلى أذهان قرائه، عقد مقارنة بينه وبين الأناجيل الأربعة المعترف بها عند المسيحيين، ووصل من خلال هذه المقارنة إلى أن القرآن الكريم في عقيدة المسلمين لا يوازي هذه الأناجيل التي يقول المسيحيون: إنها مكتوبة بالفاظ وكلمات جامعيها ومدونيتها الأربعة: لوقا، متي، يوحنا، مرقس، بل هو يوازي شخص السيد المسيح نفسه، من حيث إنه ابن الله وكلمته، وإنه غير مخلوق في نظر علماء اللاهوت المسيحيين، بالقرآن الكريم الذي هو كلمة الله تعالى غير المخلوقة في نظر المؤلف، مثله في نظر المسلمين. وبناء على هذا الاعتبار أصبح رسول الله القديس بولس من حيث إنهما الرجلان اللذين بلغا كلمة الله تعالى (القرآن الكريم، والإيمان بالمسيح وقيامته) إلى العالم أجمع.

ووصل من خلال كلامه السابق إلى القول بأن أية محاولة لدراسة القرآن في ضوء أفكار المدرسة التاريخية النقدية التي لا تعترف بألوهية الكتب المقدسة، تواجه بالرفض الشديد من قبل المسلمين كما تواجه بالرفض من قبل المسيحيين المؤمنين أية محاولة لدراسة شخصية المسيح في ضوء نظريات التحليل النفسي التي لا ترى في المسيح عليه السلام أكثر من شخص بشري عادي لا تربطه أية صلة وعلاقة بالله تعالى. ثم قام المؤلف بعرض موجز وسريع لمعنى تفسير القرآن الكريم، والمراحل والاتجاهات الكبرى التي عرفها تفسيره عبر التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً، مع تركيز وتحليل

خاص لجهود المفسرين المصريين في العصر الحديث، وقد وصل في نهاية تحليله المقتضب هذا إلى النتيجة التالية: إن معظم التفاسير التي ظهرت في مصر في العصر الحديث هي تفاسير تقليدية، وقد استدل على هذه النتيجة التي وصل إليها بالمحتوى التراثي لكل هذه التفاسير المعاصرة، حيث اكتفت هذه التفاسير بتغيير عناوينها فقط، في حين حافظت بشكل كامل تقريباً على الإرث التفسيري السابق، وبشكل خاص تفسيري الزمخشري والجلالين - مع شيء من التحديث والتبسيط، دون أية إضافة تجديدية معتبرة، ولم يستثن من هذا الحكم - غير المنصف (٨) - سوى جهود محمد عبده، وأمين الخولي دون أن يذكر لنا وجوه إضافة هذين الرجلين، أو جوانب تجديدهما في ميدان تفسير القرآن الكريم (٩).

ثم انتقل في الفصل الثاني إلى الحديث عن جهود الشيخ محمد عبده في التفسير، باعتباره - في نظر المؤلف - الشخصية العلمية الأكثر تجديداً، وتأثيراً في مجمل حركة التفسير في العصر الحديث. وفي الحقيقة، فإن المؤلف في كلامه عن جهود عبده لم يزد على عرض وتلخيص أفكار عبده، المعروفة سابقاً، في مسائل علم التفسير الرئيسية مثل، موقفه من الهدف من التفسير، اللغة، التفسير العلمي، الأسرائيليات، قضايا العقيدة، التصوف، قضايا المجتمع والعصر... دون أن يتطرق إلى دراسة ومعالجة هذه المواقف بطريقة تحليلية ونقدية، تبرر لنا سبب إعتبار المؤلف عبده أهم مفسر ظهر في مصر في العصر الحديث، بل اكتفى بالسرد، وترديد أفكار محمد عبده بأسلوب عام ومجمل. فجاء فصله هذا فصلاً بسيطاً باهتاً من جهة، ودعائياً من جهة أخرى. وبهذه الطريقة فقد هذا الفصل معظم قيمته العلمية (١٠).

تحدث المؤلف في فصله الثالث عن الاتجاه العلمي في التفسير، حيث قام أولاً بتحرير معنى التفسير العلمي، وبيان الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال السلف التي تشكل الأساس الديني لمشروعية هذا النوع من

التفسير في نظر أصحابه، والقائلين به. ثم أشار ال أن المسلمين قد عرفوا هذا النوع من التفسير والمقاربة للقرآن الكريم، قبل الاحتكاك بالغرب، والاصطدام بقوته العسكرية، وتقدمه العلمي في القرن التاسع عشر، وقد ذكر مثلاً على ذلك جهود ابن الفضل المرسي (١٢٥٧م)، التي أشار إليها السيوطي في إبتقانه، الذي حاول أن يعيد ما وصل إليه عصره من علوم الطب، والفلك، والزراعة ... إلى القرآن الكريم. ثم أشار المؤلف إلى اعتماد أصحاب التفسير العلمي على كتاب جواهر القرآن للإمام الغزالي في اكتساب المشروعات الدينية والعلمية لعلهم، حيث ذهب الغزالي في كتابه هذا إلى أنه لا يمكن من معرفة معاني القرآن الكريم إلا أولئك الذين درسوا العلوم الكونية المستخرجة أصلاً من القرآن الكريم، وكما أن الإنسان لا يمكن أن يعرف معاني القرآن دون معرفة اللغة العربية، فإنه كذلك لا يستطيع أن يعرف مثلاً قوله تعالى (وإذا مرضت فهو يشفين) دون معرفة علوم الطب. وقد شبه الغزالي القرآن الكريم بنهر كبير تتفرع منه روافد كثيرة، وما هذه الروافد إلا فروع المعرفة المتنوعة. وبهذه الطريقة فقد جعل الغزالي دراسة العلوم الكونية شرطاً ضرورياً لدراسة وتفسير القرآن الكريم نفسه (١١).

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى عرض وتحليل جهود العلماء المصريين المعاصرين في ميدان التفسير العلمي، التي انطلقت في سياق الرد على تفوق الغرب الحضاري على المسلمين، وبدء هيمنته على على بلادهم بسبب اكتشافاته العلمية، مشيراً إلى أن أول رائد لهذا التفسير في العصر الحديث، هو الطبيب المصري محمد بن أحمد الاسكندراني الذي نشر في القاهرة كتابه الأول في هذا المجال عام ١٨٨٠م، تحت عنوان "كشف الاسرار النورانية القرآنية"، ثم نشر كتابه الثاني في دمشق عام ١٨٨٣م، باسم "تبيان الاسرار الربانية". وقد أشار المؤلف إلى أن هذا النوع من الدراسات كان في مجمله جزءاً من الجدل العام الذي شهده العالم الإسلامي في ذلك الوقت حول جواز

أو عدم جواز الاقتباس من علوم الغرب الكافر والمعتدي على أراضي المسلمين. ثم تابع المؤلف تاريخه لجهود أصحاب مدرسة التفسير العلمي من أمثال: يحيى أحمد الدرديري، صاحب كتاب "مكانة العلم في القرآن"، وأحمد مختار الغزي، صاحب كتاب "سرائر القرآن"، والطبيب محمد توفيق صدقي (١٩٢٠م) صاحب كتابي: "دروس في سنن الكائنات"، "محاضرات طبية علمية إسلامية". ثم خصص المؤلف وقفة خاصة لتحليل جهود الشيخ طنطاوي جوهرى، والجدل الذي دار حول كتاباته في هذا الميدان الذي برع فيه، وكان من أهم أقطابه، وقد انتهى به هذا التحليل إلى القول بحق بأن كل جهود الشيخ طنطاوي في هذا الميدان كانت تهدف إلى حث المسلمين على إنجاز التقدم العلمي الذي يليق بهم وبيدئهم وبتاريخهم حتى يتمكنوا، بعد إنجاز وحدتهم السياسية أيضاً، من طرد الاستعمار الأوربي من بلادهم (١٢). ثم تابع المؤلف تاريخه لرجال هذه المدرسة، من أمثال فريد وجدي (١٩٤٠م) صاحب كتابي "صفوة العرفان"، "المصحف المفسر"، وحفني أحمد، وصلاح الدين خطاب، ومحمد البناء، ومحمد جمال الدين الفندي، ومحمد كامل ضو...، ثم ختم فصله هذا بالإشارة إلى أفكار وآراء معارضي هذا النوع من التفسير قديماً وحديثاً من أمثال البيضاوي، والشاطبي، ورشيد رضا، وأمين الخولي، وحسين الذهبي، عبد الوهاب حمودة..، وأخيراً فقد أشار المؤلف إلى أنه، وعلى الرغم من كل الانتقادات العلمية الموجهة لهذه المدرسة، فإنه لا يملك نفسه من إبداء إعجابه بشجاعة أصحاب هذه المدرسة قديماً وحديثاً، الذين بذلوا جهوداً مضيئة ونبيلة في التقريب بين القرآن، العمود الفقري للإسلام، وبين العلوم الحديثة، في حين أن الغرب شهد منذ أيام غاليليو (١٦٤٢م) صدامات عنيفة بين علماء اللاهوت ورجال العلم فيه، واحتجاج بعدها إلى قرون طويلة مليئة بالصراعات الدموية حتى تقبل الكنيسة فيه العلوم الصحيحة (١٣).

عالج المؤلف في الفصل الرابع الاتجاه اللغوي والأدبي في التفسير، وقد بدأ فصله هذا باستعراض جهود العلماء السابقين في مجال التفسير اللغوي للقرآن الكريم، حيث بدأ بعرض جهود ابن عباس رضي الله عنهما باعتبارها حجر الأساس لمدرسة التفسير اللغوي في القديم والحديث على السواء، ثم انتقل إلى عرض جهود غيره من العلماء القدامى الذين آثروا حركة التفسير اللغوي للقرآن الكريم عبر التاريخ من أمثال: أبو عبيد معمر بن المثنى، والزمخشري الذي يُعد بمثابة الركن المتين، الذي اعتمد على جهوده اللغوية والأدبية كل من جاء بعده من المهتمين بالدراسة اللغوية والأدبية للقرآن الكريم، وبشكل خاص العلماء المعاصرين، ثم انتقل المؤلف ليحدثنا بإسهاب عن مدى إهتمام المعاصرين من جميع الاتجاهات التفسيرية بدراسة البعد اللغوي للقرآن الكريم، ثم قام بتحليل بسيط وعام لجهود أمين الخولي، ومحمد أحمد خلف الله، وعائشة عبد الرحمن في هذا المجال، ووصل في نهاية فصله إلى القول بأن معظم جهود المعاصرين في ميدان التفسير اللغوي، ما عدا الجهود المتواضعة للثلاثة الذين سبق ذكرهم، لم تكن أكثر من استنساخ لآراء وأقوال الزمخشري، وهذا الاستنساخ قد أعاق في نظره إمكانية ظهور تفاسير لغوية تحمل طابع الجدة والابداع، وتسعى بروح مستقلة لدراسة الأشكال اللغوية التي يثيرها القرآن الكريم، دون أن يذكر لنا نماذج من هذه الأشكال. وختم حديثه بالقول بأنه بفضل إهتمام المصريين حتى على مستوى مدارسهم الابتدائية والثانوية بدراسة القرآن الكريم لغوياً، فإن المسلم المصري العادي هو أكثر إطلاعاً على المسائل اللغوية المثارة في القرآن، من مثيله المسيحي الغربي من حيث اطلاعه على المشاكل النصية واللغوية الموجودة في الكتاب المقدس (١٤).

ثم انتقل المؤلف في فصله الخامس والأخير إلى عرض أفكار وكتابات وأعلام مدرسة الاتجاه الواقعي والعملي في التفسير، وبدأ حديثه

بالإشارة إلى أن رشيد رضا هو أول، وأهم من أقحم المشاغل العملية والواقعية في تفسير القرآن الكريم في عصره، ثم تبعه بعد ذلك عدد من المفسرين والعلماء في سلوك هذا المسلك في التفسير، من أهمهم: محمد مصطفى المراغي، وأمين الخولي، ومحمود شلتوت، وحسن البناء، وسيد قطب، وعباس العقاد ... ، وقد ذكر المؤلف نماذج من مواقفهم إزاء القضايا والمسائل التي عالجوها من مثل: تطبيق الحدود الشرعية، وتطبيق الشريعة بشكل عام، والمسائل الجديدة في الفقه الإسلامي، وقضية الاجتهاد والتقليد، ومسألة الخلافة ونظام الحكم، والموقف من الاستعمار، والعلاقة مع الغرب بشكل عام .. ووصل إلى نتيجة متسارعة، وهي أن العلاقة مع الغرب كانت هي البعد الخفي الذي كان يوجه جدل هؤلاء العلماء حول المسائل التي عالجوها في تفاسيرهم وكتبهم حول القرآن الكريم.

وختم فصله هذا بحكم تهكمي - غير مسوغ علمياً - مفاده أن مفسري القرآن الكريم في ذلك الوقت كانوا يميلون مع اتجاهاتهم الأيديولوجية أنى مالت هذه الاتجاهات، وقد صبغت هذه الاتجاهات القرآن الكريم وفسرته وفق هذه الاتجاهات، حيث وجدنا هناك من يفسر القرآن تفسيراً رأسمالياً، وهناك من يفسره تفسيراً يؤيد الحكم المطلق، وهناك من يفسره تفسيراً يؤيد الحكم البرلماني الديمقراطي (١٥)!

تقييم ونقد:

وفي الخاتمة، يمكن لنا أن نقول: إن هذا الكتاب الذي استطاع أن يفرض نفسه على المكتبة الاستشرافية، بحيث أصبح الآن مرجعاً أساسياً لا غنى عنه لأي باحث غربي في ميدان حركة التفسير في العصر الحديث تلك النظرة التي تعود إلى كتابات غولد زيهر في هذا الميدان بشكل عام، إلا أنه مع ذلك قد أستطاع أن يضيف على الأقل شيئاً جديداً على مستوى المادة

القديم، وتمسكوا به، على الرغم من أن هذه المحافظة بحد ذاتها لا يمكن أن تكون دليل اتهام لأحد، بل قد تكون أحياناً علامة أصالة وتواصل مع الذاكرة الجمعية الإسلامية التي تحفظ للمسلمين وحدتهم ووجودهم عبر الزمان والمكان. هذا بالإضافة إلى أن المؤلف كان جريئاً في ذكر تقييمات كثيرة دون أن يكلف نفسه عناء إثباتها بطريقة علمية منهجية.

والتحليل أثناء دراسته لاتجاه التفسير العلمي، ربما يعود ذلك إلى عدم وجود كتابات لغولد زيهر عن هذا الاتجاه الذي اشتد عوده وظهرت ملامحه بقوة بعد وفاته عام ١٩٢١م. هذا بالإضافة إلى حرص المؤلف المستمر على الالتفات، ولو بشكل سريع وموجز، إلى السياق المسيحي الحديث فيما يتعلق بنظرة وطريقة تعامل المسلمين والمسيحيين المعاصرين مع كتابهم المقدس.

ويمكن القول أيضاً: إن معظم الباحثين المعاصرين الذين اهتموا بدراسة وتاريخ حركة التفسير في العصر الحديث قد تبناوا بشكل أو بآخر مع بعض الزيادات النموذج التصنيفي الذي اعتمده جانسن، وشاركه في الدعوة إليه في الفترة نفسها عفت محمد الشرقاوي في كتابه " اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث " (١٦) ، حيث حددا اتجاهات التفسير في مصر في الاتجاه العلمي، والأدبي، والاجتماعي، ويكفي أن نشير هنا إلى كتاب فهد الرومي " اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر"، لندرك مدى تأثير تصنيف جانسن والشرقاوي شكلاً ومضموناً على هؤلاء الدارسين، ولو كان هذا التأثير قد أتى عن طريق غير مباشر غالباً.

وفي المقابل، فإنه يمكن تقديم الملاحظات النقدية التالية على

الكتاب:

ميل المؤلف الواضح إلى الإيجاز والاختصار الشديدين ، فموضوع كبير ومتشعب مثل هذا الموضوع يستحق معالجة أكبر من المعالجة الموجزة والمكثفة التي قدمها المؤلف في أقل من مائة صفحة. وإفتقار الكتاب إلى التحليل والنقد في معظم الحالات، بالإضافة إلى لجونه إلى الإجمال والتعميم المتسرع في كثير من الحالات، ونظرته السلبية العامة إلى جهود المفسرين في هذه الفترة حيث وصفهم بالجمود والتقليد في أكثر من موضع دون أن يذكر لنا سبباً مقنعاً لما وصفهم به ما عدا أنهم حافظوا على التراث التفسيري

الإحالات والتعليقات :

١. ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار. وقد سبقه الى ترجمة فصول من هذا الكتاب الدكتور علي حسن عبدالقادر.
٢. نشر جاك جوميه كتابه تحت العنوانين التاليين :
commentaire coranique du manar J. Jomier: Le. son
commentaire du coran . et ١٩٤٠ - ١٨٦٢ Le cheikh
Tantawi Jawhari .
٣. نشر بالجون كتابه باللغة الانكليزية عام ١٩٦٨ تحت عنوان :
J.M.S.Baljon:Modern Muslim Koran Interpretation
١٨٨٠ - ١٩٦٠.
٤. مستشرق هولندي يعمل باحثاً في المعهد الهولندي للأثار والدراسات
العربية في القاهرة.
Egpt. J.J.G.Jansen : the interpretation of the Koran in
photomechanical repret, leiden, E.J. Brill, modern
. ١٩٨٠.
٦. انظر، المرجع السابق، ص ١.
٧. انظر، المرجع السابق : ص ١-٢.
٨. أين الاشارة الى جهود الشيخ طنطاوي جوهرى التجديدية في كتابه
" الجواهر في تفسير القرآن الكريم " على سبيل المثال ؟
٩. انظر، المرجع السابق، ص ١٧.
١٠. انظر، المرجع السابق، ص ١٨ - ٣٤.
١١. انظر، المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨.
١٢. انظر، المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٦.
١٣. انظر، المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٤.
١٤. انظر، المرجع السابق، ص ٥٥ - ٧٦.

١٥. انظر، المرجع السابق، ص ٧٧ - ٩٤.
١٦. ظهرت دراسة عفت الشرقاوي أول مرة عام ١٩٧٢ تحت عنوان "
اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث " ، ثم أعاد الشرقاوي
نشرها عام ١٩٧٦ تحت عنوان: " الفكر الديني في مواجهة العصر".